بين بريسكا[1] وتوفيق الحكيم

بريسكا : اني أبغضك . أبغضك من أعماق قلبي .

ت . الحكيم : استغفر الله ! لماذا يا سيدتي ؟ ما جنايتي ؟

ب : وأحتقرك كما أحتقر غالياس .

ت : لاحظي يا سيدتي قبل كل شيء أن ليست لي لحية غالياس !

ب : قل لي أنت قبل كل شيء : ماذا عليك لو انك أبقيت لي مشلينيا ؟ . . لو ان قلبك تمهل لحظة صغيرة ولم يقصف تلك الحياة قبل أن يحضر غالياس وعاء اللبن . . . ! ماذا كسبت أنت من موت مشلينيا قبل الأوان ؟ لحظة واحدة صغيرة كانت كافية لانفاذ الفتى . . لكنك ضننت بها ايها القاسي الظلوم !

ت : لست قاسيا يا سيدتي ولا ظلوما . ولو كنت أملك أمر بقاء مشلينيا دقيقة واحدة لأبقيته لك عن طيب خاطر .

ب : لو كنت تملك ؟ ومن غيرك يملك ؟ !

ت : لا تحمليني يا سيدتي هذه التبعة .

ب : جميل أن يتنصل خالق من تبعة خلقه كل هذا التنصل ! !

ت : ما أظلم الانسان ! وما أحوج المبدعين الى الرحمة والرثاء في هذا الوجود !

ب : نحن الظالمون وهم المظلومون ! شيء بديع !

ت : انكم تحملونهم التبعات وترمونهم بالظلم وهم براء من كل صفة من الصفات . فلا ظلم ولا عدل ، ولا قسوة ولا حنان ، ولا غضب ولا رضى ، تلك عواطف لا يعرفونها ولا يشعرون بها . ولو أصغى إله لصوت آدمي لانحل الكون في طرفة عين . كما تنحل قصة أهل الكهف لو اني أصغيت الى شخص واحد من أشخاصها !

فأنت تريدين أن أؤخر موت مشلينيا دقيقة . ولا تعلمين أن هذه الدقيقة الواحدة كانت كفيلة أن أن تغير وجه القصة وتقلب مصير الأشخاص وتاقي عناصر الفوضى في العمل كله . كلا يا سيدتي . اني لم أرد موت مشلينيا ولم أرد بقاءه . ولم أحب ولم أكره . ولم أظلم ولم أعدل . ان المبدع لا يمكن أن يخضع لغير قانون واحد : « التناسق » .

ب : هذا كلام تبرر به قسوتك .

ت : أنت يا سيدتي لا تعرفين ما مهنة المبدع ! ثق ان كلمة « قسوة » لا معنى لها في تلك المهنة .

ب : أنت كائن لا يمكن أن يفهمني ولا يمكن أن يفهم الحب .

ت : لا أفهمك ، هذا صحيح . أما اني لا أفهم الحب فهذا غير صحيح .

ب : هل أنت تفهم الحب ؟

ت : قليلا .

ب : هل أحببت في حياتك . . ؟

ت : أيتها الاميرة . لا أسمح بالكلام في شئوني الخاصة .

ب : معذرة . انما أردت أن أعرف كيف فهمك للحب ؟

ت : ماذا تريدين أن تعرفي . أحب الخالق وهو روح التناسق . أم حب المخلوق . . ؟

ب : حب المخلوق . . حب القلب . . الحب ما أريد . صدقت مادمت أنت خالقا وأنا مخلوقتك فان بيننا تلك الهوة . . فأنت لا تنظر إليّ بعين خاصة . ولا تعرفني معرفة خاصة . ولا تتصل بي اتصالا مباشراً . إنما تنظر إليّ كعنصر من عناصر الكل المتسق . تنظر إليّ بعين ذلك القانون الذي تحكي عنه ، و ينبغي أن تكون مخلوقا مثلي وعنصراً أو جزءاً مثلي حتي يكون بيننا ذلك الارتباط الخاص وذلك الالتفات الخاص . فهمك كذلك وهبني أحببتك فهل تحبني ؟

ت : يالك من ذكية ماهرة !

ب : أجب . إذا أحببتك . . . ؟

(١) بريسكا شخص من اشخاص رواية (اهل الكهف) التي الفها الاستاذ توفيق الحكيم وهي حبيبة مشلينيا

ت : ومشلينيا ؟

ب : دعنا الآن من مشلينيا .

ت : إذا أحببتنى ؟ . . أنا . . ؟

ب : نعم .

ت : انى أخشى هذا الحب .

ب : لماذا ؟

ت : لأنك لن تحبينى .

ب : من أين لك العلم ؟

ت : هل رأيتنى ؟ انى لا أشبه مشلينيا فى شىء . فليست لى فتوته ولا جماله ولا قوامه ولا ذراعاه ولا شفتاه . . .

ب : ولا قلبه ؟

ت : أتردد قبل أن أجيب . قد يكون لى قلبه . لكن ثقي اني اذا شقيت فى هذا الحب فانى لا أذهب الى الكهف ولا أموت جوعا . أولا ليس عندي كهف أموت فيه . وان وجدنا الكهف فلسنا واجدين الشجاعة والصبر عن أكل الشواء والدجاج يوما واحداً . . .

ب : إذن ليس لك حتى قلبه !

ت : نعم وا أسفاه !

ب : إذن مايصنع مثلك لو شقى فى هذا الحب ؟

ت : يذهب الى كهف من كهوف النبيذ فى مونمارتر . . ويؤلف قصصاً تمثيلية .

ب : مرحى ! . مرحى . . !

ت : لاتغضبي أيتها العزيزة بريسكا .

ب : أهذا فهمك للحب ؟

ت : ماذا تريدين ؟ انا لسنا قديسين !

ب : أنتم مبدعون ! . . كنت أحسبكم خيراً من هذا ! !

ت : كذلك قال غالياس يوما فيما أذكر عن القديسين الثلاثة اذ خالطهم وحادثهم . ألا تذكرين ؟

ب : كنت أظنك على الاقل خيراً من غالياس المسكين فهماً للحب ! !

ت : يشق على أن يخيب ظنك فىّ ياعزيزتي !

ب : عزيزتك ! كلا . لست أسمح لك . انك تخاطبنى كما لو كنت تعرفنى من قبل . أو كما لو كنت لى بعلا ! !

ت : حقيقة أيتها الاميرة . ليس لى هذا الشرف .

ب : تستطيع أن تنصرف يا هذا .

ت : أنصرف الى أين أيتها الاميرة . . ؟

ب : أتسألنى ؟ الى حيث كنت . . الي سمائك . .

ت : أين هى هذه السماء ؟ فى دمنهور ؟ أو فى قهوة « جراسمو » ؟ ما أكثر أوهامكم أيتها المخلوقات !

ب : نعم ما أكثر أوهامنا . . وتخيلاتنا . . وخيبة آمالنا ! . .

ت : ذلك انكم تريدون أن تخضعوا كل شىء لخيالكم أنتم .

ب : صدقت . انا نتمثل القديسين والآلهة كما تصورهم لنا عقولنا . .

ت : ثق أن لو كشف المجهول يوماً لأعين البشر لصاحوا كلهم بكلمتك التى لفظت الساعة : « كنا نحسبه خيراً من هذا . . ! »

ب : ربما . .

ت : ذلك انهم سيرون المجهول شيئاً لا علاقة له بعقلهم، ولا بخيالهم، ولا بمنطقهم، ولا بعواطفهم، ولا ببشريتهم . .

ب : انا مخلوقات . ماذا نريد من مخلوقات ؟ انا لانستطيع أن نخرج من أنفسنا لنفهم ونرى شيئاً غير أنفسنا .

ت : ومع ذلك فان لهذه المخلوقات كنزاً لايوجد عند الآلهة .

ب : القلب .

ت : نعم .

ب : اني أؤمن بما تقول . فها أنت ذا خالق من نوع تافه . . ليس لك القلب الذى لمشلينيا . . !

ت : أعترف اني أقل شأناً من حبيبك .

ب : ومع ذلك فقد اجترأت يدك على إطفاء حياته الجميلة . . .

ت : عدنا الى الاتهام .

ب : انى أبغضك . . أمقتك . . أبغضك من أعماق قلبي . .

ت : سبحان الله ! أقسم أن لا فائدة من مناقشة امرأة تحب .